

جامع حسان بالرباط:

تاريخه:

بعد رجوع السلطان يعقوب المنصور الموحي من الأندلس إلى المغرب منتصرا في معركة الأرك على ألفنصو الثامن ملك قشتالة في شهر شعبان عام 591هـ/1195م ، أراد أن يخلد هذا الانتصار بعمل فني أو معماري يكون شاهدا على قوة الموحدين في جميع الميادين. فبدأ بإنشائه الضخم المعروف بمسجد حسان بالرباط الذي أراده أن يكون من أكبر مساجد العالم الإسلامي، إذ سحر في بنائه و نقل حجارتة سبعمائة أسير من معركة الأرك . غير هذا المشروع الطموح توقف بوفاة المنصور سنة 596هـ/1199م و عليه اختلف في إثبات كمال بنيانه من عدمه الكثير من المؤرخين و المرجح أنه تم كاملا ، و لكن المتفق عليه هو أن الجامع تعرض في القرون اللاحقة للاندثار جراء الزلازل و النهب و ما بقي منه اليوم ليس أكثر من بدن مؤذنة ضخمة رائعة و أعمدة متناثرة و حدود بيت الصلاة. و هذه العناصر الثلاثة الباقية هي التي اعتمد عليها الباحثون في توثيق أبعاد المسجد الهندسية و حدوده الطبوغرافية و كل التفاصيل المعمارية التي سنعتمدها في هذا البحث.

ورد ذكر هذا الجامع و محاسنه في أكثر من موضع في أهم المصادر نذكر منها على سبيل المثال: ما جاء على لسان عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب إذ يقول: "و قد بنى المصامدة على ساحل هذا البحر مما يلي مراكش مدينة عظيمة سموها رباط الفتح، كان الذي اختطها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن و أتمها ابنه يعقوب و بنى فيها مسجدا عظيما " .

و أورد ابن أبي زرع في كتابه القرطاس في معرض حديثه عن شخصية المنصور الموحي: "و كان لما جاز إلى الأندلس لغزاة الأرك المذكور أمر ببناء قصبة مراكش و بناء الجامع المكرم الذي بإزاء القصبة و صومعته، و بناء جامع الكتبيين و ببناء مدينة رباط الفتح من أرض سلا و ببناء جامع حسان و مناره " .

أما كتاب " تحفة النظار " للرحالة ابن بطوطة و في معرضه وصفه لمدينة بلخ من بلاد ما وراء النهر جاء فيه: " إن مسجدها من أحسن مساجد الدنيا و أفسحها و مسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه في عظم سواريه و مسجد بلخ أجمل منه في سوى ذلك " .

الوصف العام للمسجد:

الوصف الحالي الذي يمكننا أن نطلقه على جامع حسان بالرباط هو أنه عبارة عن جزء من مؤذنة ضخمة و أعمدة متناثرة على أرضية مبلطة متآكلة الأطراف و هذا ما بقي من المسجد. لكن بعد العمليات الأثرية لموقع الجامع تبين أنه ذو شكل مستطيل يتربع على مساحة ستة و عشرون ألف متر مربع، بطول 180م و بعرض 142م . و يظهر في منتصف الجدار الشمالي الذي يطل على الصحن المؤذنة بارتفاع 44م التي كانت في الاصل 64م، و هي تشتمل على مصعد داخلي ملئ يؤدي إلى أعلى الصومعة يمر على ستة غرف تشكل طبقات المؤذنة و قد زينت الواجهات الأربع لها بزخارف و نقوش مختلفة على النمط الأندلسي المغربي.

وصف بيت الصلاة:

بيت الصلاة لجامع حسان عبارة عن ظلة ضخمة تتخللها ثلاثة صحن، أحدهما رئيسي يوجد أمام ظلة القبلة و الآخران جانبيان بطريقة جد متناظرة و يعد اعتماد الصحن الثلاثة كأسلوب معماري جديد و نظام فريد ظهر لأول مرة في هذا الجامع ولاشك أن استعمال الصحن الثلاثة هدفه إدخال أكبر قدر ممكن من الضوء لضخامة المبنى و لكن الغريب انه لم يعتمد هذا النظام في مساجد أخرى بعده كما هو معلوم في تأثير المساجد السابقة على اللاحقة في الكثير من الأحيان.

و بيت الصلاة هذه تشكل حرف اللاتيني و هي مستطيلة الشكل و تتألف من قسمين، قسم أمامي يشتمل على واحد و عشرون بلاطة عمودية على جدار القبلة، الوسطى منها و المتطرفتان أكثر اتساعا من غيرها و يخترق هذه البلاطات بشكل عرضي سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة. ثم يتعقد التخطيط أكثر حين تمتد البلاطات الإحدى عشر الوسطى جنوبا على إحدى عشر اسكوب و يكتنف هذه البلاطات شرقا و غربا الصحنان المستطيلان و بمحاذاة هذين الصحنين تمتد بلاطتان بطول البلاطات الأخرى. أما

القسم الثاني فيشتمل على ثلاثة أساكيب ممتدة بعرض المسجد كله بحذاء جدار القبلة و يبسط الأستاذ مؤنس تخطيط بيت الصلاة أكثر بأنها تحتوي على واحد و عشرون بلاطة سعة الواحدة خمسة أمتار فتصبح لدينا بيت الصلاة بعرض 105م، أما جوف المسجد فيتكون من خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة و كانت للجامع مجنبات اليمنى و يسرى و خلفية .

كان يقوم في بيت الصلاة 400 عمود لم يبقى منها سوى 252، مشيدة من الحجر و الرخام و الظاهر أن الأعمدة لم تتحت من قطعة واحدة كما هو مألوف و لكنها سُكّلت من مجموعة من الأقراص المستديرة التي ركبت فوق بعضها البعض بإحكام شديد و ذلك لعلو الأعمدة الشديد الذي بلغت العشرة أمتار. أما المحراب فهو يقع في نهاية المجاز القاطع بحجم ثلاثة أمتار طولاً و عرضاً وقد تعرض أعلاه للخراب.

مراحل تخطيط بيت الصلاة و تطوره:

قلنا سابقاً أن يعقوب المنصور أراد أن يخلد انتصاره في معركة الارك ببناء مسجد ضخم لا يضاهيه بناء قط، فوضع لبيت الصلاة هذه الحدود الضخمة التي نشاهدها اليوم هذا من جهة و من جهة أخرى ربما يكون المنصور . باختياره لهذا المخطط الكبير . كان يهدف إلى إعفاء خلفائه من الزيادات في المسجد التي كانت تطال الكثير من المساجد عبر عصورها، أي أن المنصور وضع في حسبانته أن الزيادة ستمس مسجده عاجلاً أم آجلاً فجعل مخطط بيت الصلاة في اكبر حجم ممكن من حجر الأساس، و عليه فلدينا مرحلة واحدة للتخطيط في الغالب.

الأمر الآخر هو أن حقيقة اكتمال بنيان الجامع و المراحل التي مر بها أو السنوات التي استغرقها تبقى مجهولة و محل خلاف، فلم نعرف إذا ما اكتمل بناء بيت الصلاة تماماً بحدودها الحالية و أقيمت فيها الصلاة؟ أم أن جزءاً منها فقط اكتمل و أستعمل للصلاة في انتظار إكمال باقي مخطط بيت الصلاة؟ كما هو شائع في وقتنا الحاضر، وحسب رأيي الشخصي: بما أن العمل في الجامع توقف عدة مرّات بسبب الوفاة و غير ذلك و نظراً للتكاليف الباهظة التي يتطلبها مشروع ضخم كهذا و الظروف السياسية و العسكرية السائدة آنذاك، فمن المحتمل أن الصلاة كانت تقام في المسجد و الأشغال مستمرة

لعدة سنوات و ربما فكرة الصحن الثلاثة لم تكن قبلا عند وضع المخطط من طرف المنصور و إنما الفكرة تبلورت أثناء سير الأشغال عند المهندسين. و في شأن بنیان الجامع أورد الناصري ما يلي: "أنه لم يتم بناؤه في عهد يعقوب المنصور الذي توفي عام 595هـ و لا حتى في عهد ابنه عبد الله محمد الناصر لدين الله يعقوب المنصور الذي اهتم بغزو الأندلس و ما لحقه من انهزام في معركة العقاب في 15 صفر سنة 607هـ و لا حتى في عهد حفيده يوسف المنتصر بالله بن الناصر بن المنصور المتوفي عام 618هـ و سجل انه كان غير تام سنة 621هـ .

المسجد الجامع بقصبة اشبيلية:

تاريخه:

يعد هذا الجامع الأثر الأبرز الذي خلفه الموحدون ببلاد الأندلس لما ناله من شهرة عالمية بسبب مؤذنته الرائعة و التي ازدادت بعد تحويله لكنيسة على عكس مخلفاتهم الكثيرة ببلاد المغرب كما رأينا سابقا، و قد أمر ببنائه الخليفة أبو يعقوب المنصور بعدما ضاق جامع العدبس بأهله و كان ذلك سنة 567هـ أما صاحب الحل الموشية فيذكر أن تاريخ بنائه يصادف سنة 572هـ .

جاء ذكر هذا الجامع و مراحل بنائه و بكل دقة في كتاب المن بالإمامة لصاحبه "ابن صاحب الصلاة" الذي يعد مؤرخ الدولة الموحدية خاصة في فترة خلافة أبو يعقوب، حيث عايش بناء جامع اشبيلية و بكل مراحل و الأحداث التاريخية المصاحبة للبناء و في هذا الصدد يقول: "...ابتدأ أمير المؤمنين بإختطاط موضع هذا الجامع العتيق الأنيق فهدمت الديار في داخل القصبة له ...فحاز الذخر و الأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس، فأسسه من الماء بالآجر و الجيار و الحصى و الأحجار على أعظم البناء و الاقتدار... وأنفذ أمره العالي ببنائه في شهر رمضان من سنة سبع و ستين و خمس مائة" . و تذكر المصادر التاريخية أن الخليفة أبو يعقوب أمر ببناء مؤذنته أيضا إلا أنه توفي في سنة افتتاح المسجد فتوقف العمل به، و لما ولي ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور حكم الأندلس أمر والي اشبيلية بالإشراف على مشروع والده و مباشرة الأعمال من جديد تخليدا لذكراه فأكمل بناء مؤذنته

التي ضاهى علوها مئذنة جامع قرطبة و تم ذلك في سنة 591هـ في احتفالية تغلب يعقوب المنصور على جيوش قشتالة في معركة الأرك.

الوصف العام للمسجد:

كان جامع اشبيلية إجابة معمارية لجامع قرطبة حيث يعتبر المثال الرئيسي الذي احتذاه مهندسو جامع اشبيلية أثناء بنائه، و لان أبو يعقوب المنصور كان محبا للفنون مولعا بالعمارة و التشييد حرص على أن يظهر هذا الجامع في أبهى صوره . تخطيط الجامع ذو شكل مستطيل طوله 150م و عرضه 110م ألحق به صحن بديع يسمى صحن البرتقال و كانت جدران المسجد خارجا مدعمة بدعائم ضخمة ، أما مئذنته فتعتبر آية فنية و معمارية من آيات المعمار الأندلسي الموحد و تعد الوحيدة التي احتفظت بالكثير من عناصرها الإسلامية الأصلية على عكس باقي المسجد الذي فقد جميع تلك العناصر بعد الزلزال الذي خربه بالكامل.

وصف بيت الصلاة:

اشتملت بيت الصلاة على 17 بلاطة عمودية على جدار القبلة امتدت من الشمال نحو الجنوب كما هو الحال بجامع قرطبة و يخترقها 14 أسكوبا ، متوسط حجم البلاطات 6,40م باستثناء البلاطة الوسطى الأكثر اتساعا بـ 7,70م و من المرجح أن أسكوب المحراب كان هو الآخر أوسع. و عقود الجامع كانت متجاوزة و منكسرة بعض الشيء مخارجها تنطلق من مناكب دعائم آجورية، أما السقف فكان عبارة عن لوحات هرمية بشكل جمالوني مثل التسقيف في قرطبة و الكتبية. و يرى الدكتور عبد العزيز سالم أن قبابا ثلاث كانت تقوم فوق الأساطين الثلاثة الناشئة من تقاطع البلاطات الكبرى بأسكوب المحراب و كانت من النوع المقرنص كالتي في جامع الكتبية.

وذكرها صاحب الصلاة هي الأخرى بقوله: " و اهتبل العرفاء و استغربوا و تحذقوا في بناء القبة التي على محرابه أعظم الإهتبال في العمل بصناعة الجبس و الأقباء بالبناء و نجارة الخشب بغاية الاحتفال "

أما الزخارف فقد وصلنا منها القليل تعبر عن التوجه الفني الموحدى قوامها الزخرفة الجصية فى العقود المطللة على الصحن و العقد الداخلى للأبواب، إضافة إلى الزخرفة الهندسية البيزنطية الأصل التى تتمثل فى أشرطة مستمرة بارزة عن الجدار موشومة بمربعات و مستطيلات قائمة على رؤوسها دون أن ننسى الزخرفة النباتية التى أهمها سعف النخيل الملساء. و لأن المسجد خرب بفعل الزلزال و مسه الكثير من التحوير بعد تحويله إلى كنيسة لم يسعنا التدقيق أكثر فى وصف بيت الصلاة خاصة فيما يخص المحراب .

مراحل تخطيط بيت الصلاة:

لم يصلنا شيء عن مراحل بناء متدرجة لبيت الصلاة بجامعة اشبيلية على غرار جامع قرطبة إذ المعروف أن مخطط المسجد الوحيد قام بوضعه شيخ العرفاء أحمد ابن باسه لما أمر الأمير أبو يعقوب المنصور ببناء جامع الجديد مكان الجامع الضيق ابن عبدس و يذكر ابن صاحب الصلاة أن البناء لم يرفع قط طوال فصول السنة(2)- يقصد البناء دون المئذنة التى كانت حينها مجرد فكرة فى ذهن أبو يعقوب- و علىة فان تخطيط بيت الصلاة كان عبارة عن مرحلة واحدة حسب الرسم الهندسي الموضوع للمسجد. لم يلحقه أي زيادة فيما بعد بسبب قصر حكم المسلمين لاشبيلية و تركها للمسيحيين الذين حولوه لكنيسة ، و لكن دون شك فان تخطيط بيت الصلاة كان سيعرف الكثير من التغيير و الزيادة لو بقيت اشبيلية تحت حكم المسلمين كما رأينا مع الكثير من النماذج و من هنا يمكننا أن نتصور تطور تخطيط بيت الصلاة فى كل الاتجاهات المتاحة حول المسجد.